

## الإسلام.. بين الإرادة والإكراه

سَيِّدُهُمُ الظَّلَّامُونَ  
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يُشْفَعُ عَنْهُ  
 إِلَّا يَادُنَّهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ  
 شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ  
 وَهُوَ عَلَىٰ أَعْظَمِ  
 الْقِبَلَاتِ  
 لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ  
 قَدْرَهُمْ مَا  
 يَكْرَهُونَ

كتَّبَ الحَدِيثُ عَنْ مَسَأَةِ الْعَنْفِ وَالْإِيمَانِ، وَيَحَاوِلُ الْبَعْضُ أَنْ يَصُوِّرَ إِلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ عَنْفًا وَقَتْلًا وَإِرْهَابًا..  
 وَالْقُرْآنُ يَؤكِّدُ أَنَّ دُعَوَتَهُ، دُعَوَةُ الْفَكْرِ وَالْحِجَةِ وَالْبَرْهَانِ الْعَلْمِيِّ، وَدُعَوَةُ الْحَوَارِ وَالْتَّفَاهِمِ وَالْتَّعَايِشِ،  
 وَإِنَّ الْجَهَادَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ، هُوَ وسِيلَةٌ مِّنْ وسائلِ الدِّفاعِ، وَلَيْسَ أَسْلُوبًا لِفِرَصِ إِلَيْهِمُ  
 وَسْلُوكِهِ، وَالْعَقِيقَةُ وَالسُّلُوكُ لَا يَكُونُانِ بِالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ.. وَلِبَيَانِ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَا إِكْرَاهَ فِي  
 الدِّينِ). قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيْرِ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ  
 بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا إِنْفِصَامَ لَهُمَا وَاللَّهُمَّ سَمِيعُ  
 عَلَيْهِمْ) (الْبَقَرَةُ / 256).

وَقَالَ مُخَاطِبًا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ص: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ  
 جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يُونُسُ / 99).

وَيَتَحدَّثُ الْقُرْآنُ عَنْ بَيَانِ النَّبِيِّ نُوحَ (ع) لِقَوْمِهِ إِنَّ حَقَائِقَ الدِّينِ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلْإِكْرَاهِ وَالْإِلْزَامِ  
 وَالْجَبَرِ، فَهِيَ عَقِيقَةٌ يَقْتِنُعُ بِهَا الْعُقْلُ، وَإِيمَانٌ تَقْبِلُهُ النُّفُوسُ عَنْ رَضَا وَقَنَاعَةٌ، جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَقَالَ يَأَمَّا قَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَيْنَّهُ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً  
 مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْهِ مُكْمُهُوهَا وَأَرَتُمْ لَهُمَا كَارِهُونَ) (هُودٌ / 28).

(وَمَا أَرَتَ عَلَيْهِمْ بِحَبْسَارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَمَنْ يَخَافُ وَعَيْدَ) (ق / 45).

وَقَالَ سَبَاحَنَهُ: (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَرَتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

وقال تعالى: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَدِّقٍ طَرِيقٍ) (الغاشية / 22) .

ولكي يتضح لنا المعنى المقصود في هذه الآيات النافية للإكراه في الدّين، والمؤكّدة أنّ مهمّة النبيّ (ص)، ودّعاة الإسلام هي الدعوة إلى الإسلام، والتعرّيف بمبادئه، وأنّ عليهم أن يحسنوا الخطاب، واعتماد أسلوب العقل والعلم والحوار، ليواجهه الإنسان المخاطب مسؤوليته وواجبه.. وأنّ تشريع الجهد والقتال، إنّما هو وسيلة دفاعية وواقائية، لكي يتضح ذلك فلنقرأ ما كتبه المفسّر الكبير العّلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي في تفسير هذه الآيات، قال (رحمه الله): "قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظِيًّا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلَاغُ)" (الشورى / 48). عدول من خطابهم إلى خطاب النبيّ (ص) لإعلامه أنّ ما حمله من الأمر إنّما هو التبليغ لا أزيد من ذلك، أرسل مبلغاً لدين الله، إنّ عليه إلا البلاغ، ولم يُرسل حفيظاً عليهم، مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم، حتى يمنعهم عن الإعراض، ويتعجب نفسه لإقبالهم عليه".

" قوله تعالى: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَرْتَنَاهُمْ بِحَبْسَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ) (قرآن / 45). في مقام التعليل لقوله: (فَاصْبِرْ عَلَيْ مَا يَقُولُونَ) (طه / 130) (طه / 130)، فنحن أعلم بما يقولون سنجزيمهم بما عملوا، ولست أنت بمتسلط جبار عليهم، حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان به واليوم الآخر، وإذا كانت حالهم هذه الحال، فذكّر بالقرآن مَنْ يخاف وعید".

" قوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلَنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظِيًّا وَمَا أَرْتَنَاهُمْ بِوَكِيلٍ) (الأنعام / 107).. تطبيّق لقلب النبيّ (ص) أن لا يجد لشركهم ولا يحزن لخيبة المسعى في دعوتهم، فإنّهم غير معجزين  $\square$  فيما أشركوا، فإنّما المشيئة  $\square$ ، لو شاء ما أشركوا، بل تلبّسوا بالإيمان عن طوع ورغبة، كما تلبّس من وفق للإيمان، وذلك أنّهم استكروا في الأرض، واستعلوا على الله، ومكرروا به وقد أهلکوا بذلك أنفسهم، فردّ الله مكرهم إليهم، وحرّمهم التوفيق للإيمان والاهتداء، إذ كما أنّ السنة الحاربة في التكوين هي سنة الأسباب وقانون العلية والمعلولة العام، والمشيئة الإلهية إنّما تتعلق بالأشياء، وتقع على الحوادث على وفقها، مما تمت فيه العلل والشرائط، وارتّفت عن وجوده الموانع، كان هو الذي تتعلّق بتحقّقه المشيئة الإلهية، وإن كان الله سبحانه له فيه المشيئة مطلقاً، إن لم يشا لم يكن، وإن شاء كان، كذلك السنة في نظام التشريع والهداية هي سنة الأسباب، فمن استرحم الله رحمه، ومن أعرض عن رحمته حرمه، والهداية بمعنى إرادة الطريق تعمّ الجميع، فمن تعرّض لهذه النفة الإلهية، ولم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق والكفر والعناد، شملته وأحيته بأطيب الحياة، ومن اتّبع هواه، وعاند الحقّ، واستعلى على الله، وأخذ يمكر بالله، ويستهزئ بما يأبه الله بسعادته، وأنزل الله عليه الشفوة، وأضلاه على علم، وطبع عليه بالكفر فلا ينجو أبداً .

ولولا جريان المشيئة الإلهية على هذه السنة بطل نظام الأسباب، وقانون العلية والمعلولة، وحلّت الإرادة الجرافية محله، ولغت المصالح والحكم والغايات، وأدى فساد هذا النظام إلى فساد نظام التكوين، لأنّ التشريع ينتهي بالآخرة إلى التكوين بوجهه، ودبّيب الفساد إليه يؤدي إلى فساد أصله. وهذا كما أنّ الله سبحانه له اضطرّ المشركين على الإيمان، وخرج بذلك النوع الإنساني عن مُنشعب طريفي الإيمان والكفر، وسقط الاختيار الموهوب له، ولازم بحسب الخلقة الإيمان، واستقر في أوّل وجوده على أريكة الكمال، وتساوى الجميع في القرب والكرامة كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوة، ولغو التربية والتمكيل، وارتّفت الاختلاف بين الدرجات، وأدّى ذلك إلى بطلان اختلاف الاستعدادات والأعمال والأحوال والمآلات، وانقلب بذلك النظام الإنساني، وما يحيط به ويعمل فيه من نظام الوجود إلى نظام آخر، لا خير فيه عن إنسان، أو ما يشعر به فافهم ذلك".

" قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَدَّيْتَ نَارَ الرُّشْدِ مِنَ الْغَيْثِ) (البقرة / 256). الإكراه هو الإجبار، والحمل على الفعل من غير رضى، ثم قال: وفي قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، نفي الدين الإجباري، لما أنّ الدين، وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها

أخرى عملية يجمعها أنّها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإنّ الإكراه إنّما يؤثّر في الأعمال الظاهرة، والأفعال والحركات البدنية المادّية، وأمّا الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سُنّة الاعتقاد والإدراك، ومن المُحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدّمات غير العلمية تصدِيقاً علمياً، فقوله: (لا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ)، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين، أنتج حُكماً دينياً بتنفي الإكراه على الدّين والاعتقاد، وإن كان حُكماً إنسانياً تشريعياً، كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: (وَقَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ)، كان نهياً عن العمل على الاعتقاد والإيمان كرهًا، وهو نهي مُتّكِيء على حقيقة تكوينية، وهي التي مرّ بيانها أنّ الإكراه إنّما يعمل ويؤثّر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية .

وقد بيّن تعالى هذا الحكم بقوله: (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَمِّ)، وهو في مقام التعليل فإنّ الإكراه والإجبار إنّما يرکن إلىه الأمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمة التي لا سبيل إلى بيان وجه الحقّ فيها لبساطة فهم المأمور ورداءة ذهن المحكوم، أو لأسباب وجهات أخرى، فيتسبّب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه، وأمّا الأمور المهمة التي تبيّن وجه الخير والشرّ فيها، وقرّر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها، فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل، وعاقبتي الثواب والعقاب، والدّين لما اكتشف حقائقه، واتّضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسُّنة النبوية، فقد تبيّن أنَّ الدّين رشد، والرُّشد في اتباعه، والغي في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لأن يُكره أحد أحداً على الدّين

وهذه إحدى الآيات الدالة على أنّ الإسلام لم يبتئن على السيف والدم، ولم يفت بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحليين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف واستدلوا عليه: بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين، وقد تقدّم الجواب عنه في ضمن البحث عن آيات القتال، وذكرنا هناك أنّ القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحرار التقدّم، ويسقط الدين بالقوّة والإكراه، بل لإحياء الحقّ، والدفاع عن أنفس متعال للفطرة وهو التوحيد، وأمّا بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهوّد والتنصر، فلا نزاع لمسلم مع موحد ولا جدال، فالإشكال ناشيء عن عدم التدبر. ويظهر مما تقدّم أنّ الآية - أعني قوله: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) - غير منسوبة بآية السيف كما ذكره بعضهم".

"وقوله: (أَنْذِرْ مُكْمُوهَا وَأَرْتُمْ لَهَا كَارْهُونَ) (هود/ 28)، الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقنه ولا ينفك عنه، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون، إجبارهم على الإيمان بما آياته، والتلبس بما تستدعيه المعارف الإلهية من النور وال بصيرة. ومعنى الآية - و الله أعلم - أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم، وكان عندي ما تحتاج إليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكما الحق، لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنا دكم واستكباركم، أ يجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته، وقد أوقفتكم عليه لكنكم لا تؤمنون به، طغياناً واستكباراً، وليس عليّ أن أجبركم عليها، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه .

ففي الكلام تعريف لهم أنّه قد تمت عليهم الحجة، وبناءً لهم الحقيقة فلم يؤمنوا، لكنّهم مع ذلك يريدون أمراً يؤمنون لأجله، وليس إِلَّا الإجبار والإلزام على كراهية، فهم في قولهم: (مَا زَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَّا) (هود/ 27). لا يريدون إِلَّا الإجبار، ولا إجبار في دين الله. والآية، من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين، تدلّ على أنّ ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشائع، وهي شريعة نوح (ع) وهو باقٍ على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ".

"أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (يونس/ 99) أي بعدهما يدّنا أنّ أمر المشيئة إلى الله، وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمّنون باختيارهم البتة، لم يبق لك إلا أن تكره الناس وتجبرهم على الإيمان، وأنا أنكر ذلك عليك، فلا أنت تقدر على ذلك، ولا أنا أقبل بالإيمان الذي هذا نعته".

وقال تعالى مخاطباً نبيهُ الكريم (ص) ليوضح له مهمته كنبيٍّ مبلغٍ ويحدّد له موقفه من يرفض دعوة الحق والهدى والصلاح :

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَرَتَ مُذَكِّرْ \* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرِ \* إِلا مَنْ تَوَلَّ<sup>١</sup>  
وَكَفَرَ \* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ) (الغاشية/ 21-24).

قال المفسّر الإمامي الكبير: "معناه لست عليهم بمتسلط تسليطاً يمكنك أن تدخل الإيمان في قلوبهم، وتجبرهم عليه، وإنما الواجب عليك الإنذار، فاصبر على الإنذار والتبلیغ، والدعوة إلى الحق" .. وقبل معناه، لست عليهم بمتسلط الآن حتى تقاتلهم إن خالفوك، وكان هذا قبل آية الجهاد ثم نسخ بالأمر بالقتال.. والوجه الصحيح أزه لا نسخ فيه، لأنَّ الجهاد ليس بإكراه للقلوب، والمراد إزك إز ما بعثت للتذکير وليس عليك من ترك قبولهم شيء.. إلا مَنْ تولى وكفر، أي أعرض عن الذكر، ولم يقبل منك، وكفر بما، وبما جئت به فكل أمره إلى الله، عن الحسن، وقيل معناه إلا مَنْ تولى وكفر فلست له بمذکر، لأنَّه لا يقبل منك فإذاك لست تذكره (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ) وهو الخلود في النار.." .

وبعد هذا العرض للآيات القرآنية المتقدمة عن الإيمان ورفض الإكراه ووجوب أن يكون الإيمان عن قبول وقناعة عقلية وقلبية يتضح أنَّ القرآن لا يريد إيمال دعوته بالقهر والإكراه، بل بالوعي والفهم والتفكير.. قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزَلَ إِلَيَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفَرِّضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكِتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ) (المائدة / 83).

(وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ  
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ) (النحل/ 44)، (هُوَ الَّذِي أَرْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسْيِمُونَ \* يُنْذِبُتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ  
وَالرِّزْقَ يُؤْتُونَ وَالنَّحْيَلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةَ  
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
وَالنَّجْوَمُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةَ لِقَوْمٍ يَعْفَلُونَ ) (النحل/  
10-12).